الفصل السابع

تربية الآباء والأمهات، وتربية المراضع والخادمات

الغريب من أمر بعض الوالدين أنك تراهم إذا كانوا ممن أنعم الله عليهم بالثروة والغنى لا يلهون طرفة عين عن الاهتمام بخيولهم، والنظر في أمر علفها، وانتقاء الجيد منه، وتفقد إسطبلاتها، والحض علي تنظيفها والعناية بها. في حين أنهم لا ينظرون نظرة واحدة إلى حجرة أولادهم، ولا يعنون مرة واحدة بتفقد طعامهم.

وأنكى من ذلك أن بعض الأمهات يسلمن الولد إلى المرضعة تفعل به ما تشاء، وتربيه كما تشاء، وليس المرضعات حنو الوالدات.

وقد شهدنا فيما جمعناه من الملاحظات فيما يختص بالتربية في الشرق: أن عادة (بل آفة) عدم الاهتمام بأمر الأولاد تزيد في كل يوم تفشيًا، حتى أنه أصبح من شروط "التمدن" أن تسلم الأم ولدها إلى المرضعة، ثم لا تسأل عنه إلى يوم الفطام، فإذا جاء ذلك اليوم أخذته من بين ذراعي مرضعته لترمي به إلى يد مربيته، فتكتنفه هذه وهو في تلك السن التي يحتاج فيها إلى أعظم عناية والدية، بما تسمح لها به الظروف من العناية، وبما تجده في فؤادها الغريب عن هذا الولد من بقايا عواطف الحب والحنان.

وإذا أقدمت علي ملامة أحد هؤلاء الرجال وسألته عن سبب اعتنائه بماشيته، وكلبه، وجواده مع إهماله أمر أولاده أجابك أن الاهتمام بالأولاد من شئون الأم والخادمة. ولعل هذه الأم التي يلقي عليها الرجل كل اعتماده في

تربية بنيه وبناته لا تعرف من أمور الدنيا سوى التطريز، أو الرسم، أو الضرب علي البيانو، أو قراءة القصص، كما هو الشأن الآن جريًا علي تقاليد التمدن كما سيجئ.

وإذا سألت الأم: كيف يجوز لها أن تهمل العناية بأولادها؟ أجابتك دون حياء أنها لم توجد لتكون مرضعة أطفالها، ومربية صغارها، بل أن عليها واجبات أخري لا تحسن القيام بها إذا عنيت بأمر أولادها. وإلا فمن يستقبل زوارها، ومن يرد زياراتها، ومن يقابل الخياطة عنها، ويقرأ لها جرائدها، ويعني بأمور تبرجها وزينتها –اللهم رحمة من لدنك يا أرحم الراحمين– ومن وجه آخر فإن الخادمة حاضرة، والولد مكفول بعنايتها.

نعم، ولكن هذه الخادمة لا تعرف في الغالب من أمر تربية الأولاد سوي إطعامهم إذا طلبوا الأكل ولو في كل ساعة مرة دون أقل ترتيب، وزجرهم بغلظة وعنف إذا عرض لها أن تربيهم، أو تركهم علي أهواء أنفسهم إذا مر بخاطرها طارق يلهيها عن أولاد غيرها. بل لعل هذه الخادمة لا تعرف من أمر التربية سوي مزاعم وأوهام تلقنتها من أهل طبقتها، وهي طبقة الجهل والغباوة كما لا يخفى.

وكم رأينا الخادمات والمربيات يسقن الأولاد إلى المنتزهات، ثم يلهين عنهم لهوًا تامًا، فلا يأتي الأولاد إلا كل أمرًا مضر بصحتهم، مؤذٍ لأبدانهم. حتى أننا رأينا رأي العين مرة ولدًا يتناول التراب بيده، فيحشو به فمه، والخادمة المعهودة إليهاحراسته لاهية عنه بحديث مع خادمة أخري، ولعل كل واحدة منهما كانت تنم بسيدتها، وليس ذلك بغريب.

ورأينا مرة خادمًا بربريًا يجر ابن سيده بفظاظة وقسوة لم يعهد لها مثيل، والولد يبكي وينتحب وهو لا يزيده إلا قسوة وغلظة.

وكان بعضهم سائرًا في الباب الشرقي، فرأي ولدًا لا يكاد يبلغ الثالثة من عمره يسير بعيدا عن الرصيف، والمركبات في ذهاب وإياب، والولد معرض في كل ساعة لأن تدوسه الخيل بأرجلها، والخادمة المرسلة لحراسته لا تفكر في أن تعرف أين هو، حتى اضطر الرجل لأن يأخذ الولد بيده ويفتش علي الخادمة الموكول أمره إليها.

وقد سألنا مرة ابن أحد الأغنياء وعمره أربع سنوات عن أبيه فقال: لا أعرف اسمه، فسألناه عن أمه فقال ماري. وماري هذه إنما هي مربيته التي لا يري غير وجهها صباح مساء، حتى أصبحت في عرفه أمًا له، وصارت والدته أجنبية عنه.

وقيل مرة لفتاة صغيرة علي سبيل المزاح: كم تحبين أمك؟، فقالت: أيهما فإن لي أمّين: جوزفين، والأم الكبيرة وهذه لا أحبها. وجوزفين مربيتها والأم الكبيرة أمها وهي لا تحبها، فتأمل كيف يرجو الوالدين أن يجدوا في قلوبهم حنانًا علي الذين لا يربونهم بأنفسهم، وكيف يأملون أن يجدوا في قلوبهم حنانًا علي الذين لا يربونهم بأنفسهم، وكيف يأملون أن يجدوا في قلوب أولادهم حبًا لهم وهم علي الحقيقة غرباء عنهم؟.

بل كيف تقوي العواطف العائلية، وتتمكن روابط النسب بين أم وبنتها، وأب وولده إذا كبر الولد بين يدي الخادم الأجنبي، وشبت الفتاة بين ذراعي المربية الغريبة دون أن تشعر بنظر الأم يحوم في كل ساعة حولها؟.

لا بل كيف يحبنا أبناءنا وبناتنا إذا استيقظوا في الصباح فلم يروا غير وجه الغرباء يبتسم لهم، ثم ناموا في المساء ولم يغمضوا أجفانهم إلا بقبلة الغرباء علي جبينهم؟. وقد جاء في الأمثال أن ثوب العارية لا يدفئ.

وذلك هو السبب في ما نراه في هذه الأيام من فتور الحب الوالدي، وتراخي الإخلاص البنوي، وزعزعة الأركان العائلية، ولم يكن الشأن فيما مضى كذلك. بل كان أجدادنا إذا رزقهم الله أولادًا عرفوا قيمة هذه النعمة، وعملوا علي شكران الله عليها بالعناية بها. فكنت تري الأب يسهر بنفسه علي ابنه، والأم لا تغفل طرفة عين عن ابنتها.

أما الآن فقد تبدلت الأمور، وانقلبت الأحوال، وأصبح ما كان عليه أجدادنا من الفضيلة العائلية أمرًا مستهانًا، في حين أنه هو الكمال بعينه.

فيا أيها الأب: إن ابنك محتاج في كل أطوار حياته إلى عنايتك. وهو في صغره محتاج إلى ابتسامة منك احتياج الأرض الظمآنة إلى وابل المطر.

ويا أيتها الأم: إن ابنتك لا يجب أن تخرج من تحت جناح عنايتك إلا متى أخرجتها الأيام من ولايتك لتدخل في ولاية زوجها. وهي في طفولتها وصغرها أحوج إلى قبلة منك من النبت الصغير إلى حرارة الشمس.

فإن المحبة الوالدية نور يشرق علي قلوب الأولاد، وهي حرارة الحياة تنبت في أبدانهم، وتدفئ قلوبهم، وتلقي في صدورهم بذار الحب البنوي العظيم.

ومن أهمل النظر بنفسه في تربية أولاده فلا يلومن إلا نفسه يوم يكبر أولاده، ويجد قلوبهم خاوية من الحب الحقيقي والولاء البنوي الصادق له، ولوالدتهم، وسائر إخوانهم والسلام.